الغزل بين جرير والفرزدق

(١) غزل جرير عفة ، وغزل الفرزدق فسق

خرج جرير من طبقات الشعب وفاخر ثمانين شاعراً فغلبهم بأب كان يمصّ ضرع المعز مصاً لئلا يسمع صوت الحلب فيطلب الناس منه لبناً ! ومهما يكن نصيب الرواية من المبالغة فلا شك فى أن جريراً كان فقير الحال وضيع النسب ولم يكن فى أهله وعشيرته ما يفتخر به

ورأسُ مال الشريف فى الحياة شرفه يحترمه الناس لأجله ، ورأس مال الغنى ماله يحبه الناس من أجل ماله ، أما رأس مال الفقير فأخلاقه ، وأما رأس مال الوضيع فعفةٌ يتحلى بها ، حتى اذا لم تكن رذله الناس واحتقروه ، وطمعوا به وأبغضوه. ولذلك تعهد جرير جرثومة العفة فى نفسه ورباها وتحلى بها وأنماها فكانت له زينة رفعت من قدره فى أعين العامة والخاصة .

وأحبَّ جرير زوجته ، ولعلها كانت امرأة فاضلة أهلاً للحب فأثرت فضيلتها فى حياته . والمرأة الفاضلة لا تقوّم بثمن ، ولعلها كانت تلطف من حدته وتقوده الى الفضيلة. ولنا من توبيخها ولدها عندما عقَّ أباه دليل على عفتها وتأثيرها . وقد شهد الفرزدق بفسقه وعفة جرير وكفى بالخصم شاهداً ، قال : «ما أحوج جريراً مع عفته الى صلابة شعرى ، وما أحوجنى الى رقة شعره مع شدة فسقى !» فلماذا كان الفرزدق فاسقاً ؟

كان هذا الشاعر شريفاً له من شرف آبائه ما يمنع الناس من احتقاره ، ومن مجد أجداده ما يحترمه الناس لأجله ، ولم يكن فى حاجة الى العفة يتحلى بها ويتخذ منها رأس مال لحياته . وكان ينحت الشعر نحتاً فأولى به أن يقلد الشعراء ويتشبه

بقائدهم ، ولا غرو فذاك أميرٌ وهذا شريفٌ . ومن يسرق الشعر لا يعف عن سرقة مواقف الشعراء .

ولم يكن الفرزدق موفقاً معزوجه فلم يرَ فى العفة حلية ، وكثيراً ما كان يفسق بلسانه فقط !

كان جرير عفيفاً يخاف كلام الناس ويخشى شكهم فى عفته ، ويفرق من زيارة الطيف حتى فى الليل فيرجعه بسلام على شغفه وحبه ، قال :

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام !

وربما لم يكن فى البيت عفة جرير ، ولكن فيه ما يدعو الى العفة ويغرى بها ، ويبعد عن الفسق والفجور ، وكفى بسكينة بنت الحسين شاهداً على ذلك .

واذا كان جرير عفيفاً فأولى بمن يحبه أن يكون كذلك ، وأولى أن يزوره لماماً وأن يكتفى كل منهما بالطيف ، ولعلَّ فى طلب العصاميين المعالى وصعودهم درجات المجد والنبوغ ما لا يفسح لهم المجال للانهماك بالملذات ، ولعل العفة سجية يتحلى بها بعض الناس دون بعض لولا أن فى ذلك تسليما والظن خير من التسليم . قال جرير :

بنفسى مَن تجنبه عزيزٌ علىَّ ، ومَن زيارته لمامُ

ومَن أمسى وأصبح لا أراهُ ويطرقنى إذا هجع النيامُ

أما الفرزدق فكان فاسقاً متهوراً يزور حبيبته — وحبيبته متزوجة — ليلاً فى قصرها حتى اذا حاذر دخول المساكن من أبوابها أصعدته حبالها كالسارق ! قال :

فما زلت حتى أصعدتنى حبالها اليها ، وليلى قد تخامصَ آخرُهْ

حتى اذا قضى وطره أراد الرجوع فحاذر بوَّابين يحرسانها وباباً اذا فتح سمع صوت مساميره ولا يحاذر البوَّاب غير الفسقة الفجار ، قال :

أحاذر بوَّابين قد وُكلاَ بها وأسحر من ساج تئط مسامِرُهْ

فاذا دلتاه كما أصعدتاه ولى هارباً والسارق أبداً خائف ، والفاسق أبداً جبان . قال :

فقلت ارفعا الأسباب لايشعروا بنا وولیت فى اعجاز ليلٍ أبادرهْ

(٢) تغلب الرقة فى غزل جرير على الطبع
أما الفرزدق فلا رقة ولا طبع

قال جرير : « ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكى على مافاتها من شبابها » . ونرانا نجهل مبلغ هذا الكلام من الصدق ، ونصيبه من الحقيقة المجردة . ولكننا لا نشك فى أن جريراً أحبَّ والحب غير العشق . وتأثر بجمال المرأة وفضيلتها ، والتأثر غير التحسر . وربما بكى لفراق حبيبه ولكن فنه غلب بكاءه ، ونبوغه غلب حبه . وظهر الطبع فى غزله ولكن الرقة أظهر ، وغلب الحب على شعره ولكن الفن أغلب ، قال :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لى : ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟!

واذا تكلمت الدموع سكت اللسان ، واذا تحرق القلب غاض الدمع ، واذا كانت النفوس كباراً كتمن الحزن ، وغيضن الدمع ، واكتفين بالعتاب المر وهو على مرارته حلو ، وعلى تعذيبه لذيذ . وأظهر ما يكون الفن فى هذا الاستفهام الانكارى الذى يضم بين جناحيه كل هناء الحب وشقائه .

نقرأ هذا الغزل فيطربنا ، ونتذوق ذلك النسيب فيعجبنا . وانما تطربنا فيه تلك الرقة الحلوة ويعجبنا بين سطوره ذلك الفن الجميل . أما ألم الشاعر فبعد فنه ، وأما شوقه فبعد رقته ، وكأنه فى غزله شاعر فنان لا عاشق ولهان . قال :

لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى لا أستطيع لهذا الحب كتمانا

وعبثاً يحاول ذو الحب كتمانه فالحب لا يقبل الكتمان ، وعبثاً تريد الجبابرة قهره فالحب لا يقهر ، ولا عار فى ذلك فسلطانه أقوى من سلطان الرشيد :

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعزُّ من سلطانى

وقوته أعظم من قوة القيصر .

ولكن الرقة فى بيت جرير على طبعه أظهر من الطبع ، والفن على حبه أقوى من الحب . قال :

لا بارك الله فى الدنيا اذا انقطعت أسباب دنياك عن أسباب دنيانا
يا أمَّ عثمان ان الحب عن عرَضٍ يعصى الحليم ويبكى العين أحيانا

والحبيب للحبيب الدنيا كلها ،ولعنها الله إن لم يكن فيها حب . ولكن جريراً على اصابته كبد الحقيقة بسهام فنه لم يقرن القول بالعمل ولم تكن الدنيا عنده حباً كلها.

وليس فى البيت الثانى ما يبكى العين مع رقته وجماله ، وليس فى غزل جرير كله ما يحزنك لحزنه أو يؤلمك لألمه ، نقرأه فلا نبكى لبكائه كما بكينا لبكاء عنترة مثلا ، ولا نهتف متألمين : «ما أشقاه !» بل نصرخ معجبين : « ما أبدع فنه وما أجمل شعره ،وما أرق نسيبه !»

أما الفرزدق فلا رقة فى غزله ولا طبع ، أراد أن يزور حبيبته ليلا لا لأنه عاشق بل لأن امرأ القيس زارها قبله ، واذا كان امرؤ القيس قد سما اليها سموّ حباب الماء فالفرزدق يتجاوز الماء الى الجبال وكأنه لم يحب ، فكان غزله جافاً لا رقة فيه ونسيبه مصطنعاً لا طبع يحليه ، قال :

ها دلتانى من ثمانين قامة كما انقضّ باز أقتم الريش كاسره

وليس فى ذلك الانقضاض غير قوة تخيف رقيقة الحس ، وتزعج لطيفة الشعور ، وليس فى ذلك التدلى فن أو رقة . أما الكذب فأظهر ما يكون فى تلك القامات الثمانين . ولسنا ندرى أى شيطان وسوس فى صدر الشاعر بها ، ولعل أحداً من المتنطعين لا يدّعى بأن العرب عرفوا ناطحات السحاب قبل أميركا بدليل شعر الفرزدق !

(٣) أسلوب جرير حضرىّ يعنى به

وأسلوب الفرزدق جاهلىّ بدوىّ

جريرٌ أمويّ نشأ فى بادية اليمامة ولكنه كان ذا هبة شعرية نشلته من طبقة العامة، ورفعته عن مقام أسرته ، ولولا تلك الهبة لانصرف جرير الى شأن آخر ، فكأن الشعر طلبه ليكون شاعراً ، وكأن الفن غذاه ليخلق منه فناناً . ولذلك غرف الشعر من بحر ولم ير مظاهر الحضارة حتى أخذ بأسبابها .

لم يتعب جرير نفسه فى عمل الشعر كما أتعبها الفرزدق فكان شعره بحراً ، ولم ينحته من صخر كما نحته صاحبه فكان رقيقاً ، وكان من طبقة الشعب رقة تختلف عن عظمة الخاصة وشدتهم ،والشعب أقرب الى التطور من الأشراف وأسرع تأثراً بعوامل الحضارة منهم .

وقد ظهرت هذه الحضارة فى شعر جرير كله وتلك الرقة فى غزله ورثائه حتى غنى بذاك وندب بهذا ، ولما ماتت زوج الفرزدق ندبتها النادبات برثاء جرير فى زوجته ، وفى ذلك دليل على قرب شعر جرير من الموسيقى وأفضل الشعر لفظاً أقربه الى الغناء .

وقد أعجب الشعراء برقة جرير ، وغنت بشعره القيان ، وضمنه بشار بن برد أول المحدثين احدى قصائده ، قال :

وذات دل كأنَّ البدرَ صورتها باتت تغنى عميدَ القلب سكرانَا :

« ان العيون التى فى طرفها حورٌ قتلننا ثمَّ لم يحيين قتلانَا »

وفى هذا الغناء دليل على شهرة شعر جرير ورقته وحلاوته ، وفى هذا التضمين برهان على منزلة الشاعر فى قلوب الشعراء ، وفى هذا القتل تبعثه العيون الحور لذة دونها لذائذ الحياة ؛ وقتل العيون فى الحب أجمل من الحياة !

وقال جرير :

يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراكَ بهِ وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

ولا يزال هذا المخلوق الضعيف يفتك بالأقوياء ويصرع العقل المعتدّ بنفسه ، المترفع عن ملاهى الحب فى زعمه .

ولكن فى بيت جرير غير هذا المعنى الخالد ، فيه تلك الرقة الفتانة ، وذلك اللطف الساحر ، وقد أراد ابن الرومى هذا المعنى فقال :

ومن عجائب ما يمنى الرجالُ به مستضعفاتٌ لنا منهن أقرانُ

ولكن فى بيت ربيب البادية جرير الأموى من الرقة والموسيقى ما لا نجده فى بيت ربيب الحضارة ابن الرومى العباسى وربما كان فى الثانى معنى عميق مستقصر .

وقال جرير وقد ضمنه بشار وغنت به الجارية :

يا حبذا جبلُ الريان من جبلٍ وحبذا ساكنُ الريان مَنْ كانا

واذا أحب الانسان حبيباً أحب داره وأهله ، ونسيماً يهبّ من بلاده ، ورائحة تفوح من جهته :

وحبذا نفحات من يمانية تأتيك مِنْ قِبَلِ الريان أحيانا

ولا تشعر بتأثير البيتين الا اذا أبدلت الريان وطنك أو وطن حبيبتك ، وقريتك

أو محلة حبيبتك . أما الرقة ففي لطف البيتين وأسلوبهما ، وأما الحضارة ففي صورهما على رغم اليمن والريان، وأما الموسيقى فلا أسهل من انشادهما والتغني بهما كما تغنى القدماء .

أما الفرزدق فقد كان ارستوقراطياً صلباً ، وكان قوى الارادة صعب الشكيمة قيد نفسه بالشعر كما قيدها بحفظ القرآن ، وكان له من شرف آبائه وأمجاد أجداده ما جعله يطلب الشعر ليفتخر بهم فنحته نحتاً وأتعب نفسه في عمله جهداً ، واذا طلب الشاعر الشعر كان الشعر قوياً صلباً واذا طلب الشعر الشاعر كان رقيقاً بديعاً، وهذا الفرزدق نفسه يرق عند ما طلبه الشعر ليمدح زين العابدين فلا يزاحمه جرير في غزله والأخطل في خمرته .

وأعجب الفرزدق بالجاهلية ومفاخرها فكان أسلوبه بدوياً ، وكان غزله جاهلياً مع ما بين الطبع والصنعة .

قلد الفرزدق في غزله فكان دون شعراء الطبع من العصر الجاهلي ، وكان قوياً في نفسه ، صلباً في ارادته ، غليظاً في طبعه ،فكان شعره قوياً صلباً لا يمت الى الغزل بصلة ، ولا يمكن أن يغنى به . قال يفضل الأعرابية على الحضرية بشعر قوى :

لعمرى لأعرابية في مظلة تظل بروق بيتها الريح تخفقُ
أحبّ الينا من ضناك ضغنة اذا وضعت عنها المراوح تعرقُ

وفي الابتداء بلام القسم تناولها لام الابتداء صنعة في الشعر ظاهرة،وفي اضافة المثنى قوة لفظية وفي الروق والضناك والضغنة كلمات جاهلية ، ولكن في عجز البيت التالي سهولة لعل سببها أن الفرزدق أراد به الهجاء .

وقد كان لتقليد الفرزدق وجاهليته وغلظ طباعه أثر في وحشية صوره ، قال :

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرى على منهل الا نشل ونقذفُ
كلانا به عر يخاف قرافه على الناس مطلى المساعر أخشفُ

وفي هرب الحبيبين من غلاظة الناس وكيدهم وثقل دمهم راحة نستحسنها في شعر الفرزدق ، ونعجب بها في معناه ، ولكن في البعيرين الأجربين صورة يمجها الذوق ، ويقذف بها قذف الناس بالاجرب .

ولسنا ندري رأي المحبين المتيمين في صور الفرزدق وألفاظه ، وما قول رأي محبي اللطف والرقة والجمال من الجلسين الخشن واللطيف في مثل هذه الكلمات وتلك

الصور : نشل وعر وقراف ومساعر وأخشف ، وقد أصبح الناس يكرهون طلاء الحمرة والبودرة فما رأيهم بطلاء القطران ؟ !

وربما كان لمثل كلمات الفرزدق وصوره أثر مقبول فى عصره ، ولكن الأرجح بل اليقين أنها كانت كما لا تزال قبيحة قبح الفرزدق فى حبه ؟

عبد الله نمر

(مدرس الآداب فى كلية الشرق — طرطوس)

فى الشعر المرسل

كلُّ مَنْ تذوَّقَ الشعر الانجليزىَّ تذوُّقاً تاماً يعرف المتانه التى لاتفارق نماذجه العالية ويعرف طواعيةَ الألفاظ طواعيةً تامة فى الشعر المرسل بصفة خاصة وكيف يتقبَّل الشعراءُ ألفاظاً معبرة ، ومنها ألفاظ علمية وفنية وجغرافية وما الى ذلك ، ما دامت تأتى طبيعية فى مناسباتها .

ولكن جرى العرفُ الآمرُ المتحكم بأن يعيب علينا عائبٌ ذكر كلمة « ايطاليا » فى أحد أبيات قصيدتنا « صرّار الليل » المنشورة فى ديوان (الشفق الباكى) — ص ٧٢١ : ٧٢٢ — ولو كانت محلّها كلمة « نجد » أو « الشام » مثلا لما وجد محلاً للعيب ! الى هذا الحدّ بلغ تحكمُ العادة وعبودية الألفاظ فى بعض المتصدّرين للنقد ، ولو أنصفوا أنفسهم قبل غيرهم لتدبروا سماحة التعبير فيما ينتقدون اعتباطاً ولتبينوا معنى حرية النظم التى وراءها غرضٌ فنى صريح ولأحجموا حينئذ عن مثل هذا العبث النقدى (راجع كتاب Active Anthology جمع وتأليف إزرا باوند).

إنّ قصيدة « صرّار الليل » ذات مغزى نفسانى صريح الى جانب ما فيها من البيان الوصفى لذلك المخلوق الغريب « الجدجد » والترجمة لسيرته وأوطانه ! ولكن بعض النقاد لا يشغله شىء من هذا (وانما كلّ ما يعنيه أنّ هذا اللفظ مألوف الاستعمال أو غير مألوف بغضّ النظر عن ملاءمته التامة لموضعه ومناسبته ! ومن هذا القبيل ما وُجّه الينا من نقدٍ لوصفنا أحد الأحياء الوطنية القذرة البشعة مما يدخل فى باب الأدب الواقعى ، كأنما النفاق فى الوصف هو الأشرف الأكرم ، أو كأنما الأكياس لدى هؤلاء قول امرىء القيس :

ترى بعرَ الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فُلفلِ !

ومثل هذا النقد يذكرنى بمؤاخذة بعض النقاد للنحات الشهير إبستين من أجل تمثاله البديع « تأمل الرجل — Behold the Man » لا لأىّ نقص فى مظاهره وروحه التعبيرية ، بل لمجرد مخالفته المألوف من متابعة الفنّ الاغريقى أو الفنّ الحديث واستقلاله بروح طبيعية فطرية يحسبها النقاد السطحيون ضعفاً ، وما هى الا استقلال الفنان وحريته التامة حسب مزاجه فى التعبير عن فكرة تشبّع بها ، وقد اختار أن يكون فطرىَّ البيان وإن كانت فكرته الفنية بعيدة الغور . وكذلك الشعر المرسل فهو فطرىُّ النظم وإن كانت الفكرة التى يحملها من طراز آخر .

ولا نعرف ناقداً نزيهاً متفقهاً يعلم شيئاً يذكر عن مقارنة الفنون وفلسفتها يجرؤ على التورّط فى مخالفتنا إلا عن طريق المكابرة ، وهذه ليست من طباع أىّ فنان أصيلٍ مؤلّفاً كان أم ناقداً .

هواجس نقدية

نعرض فى هذا الباب على سبيل المثال طائفةً من الهواجس النقدية الشائعة وتعليقاتنا عليها لأجل الفائدة الأدبية المحضة . ولولا أن التهافت على النقد الأدبى أصبح عادةً متفشية بين الشبان حتى الذين لم يستكملوا بعد أهمّ أدواته ، وبين من لا تؤهلهم ثقافتهم المحدودة لنصب موازين الأحكام الأدبية ، لما نشأت أمثال هذه الهواجس وتفشت ، وإن كنا نعترف بأن من أسباب تفشيها تغلب الحزبية الشخصية أو السياسية التى لا تستحى فى سبيل أهوائها من أىّ مغالطةٍ ومن أى تذبذب فكرى غير خاشيةٍ لومة لائم !

وقد أذاعت هذه الهواجس المفتعلة تلك المؤامرةُ المعروفةُ التى حُبكت حولنا فى شتى الصحف فى العهد الأخير دون أن تكون لها أىُّ نتيجة أدبية تمسنا ، وإن كانت لها نتيجةٌ مخجلةٌ فى تصوير بعض كبار الأدباء المصريين الذين عملوا على مناوأتنا ، مما كان له وقعٌ سىءٌ فى نفوس الكثيرين من المستشرقين . ويشهد الله أن ذلك يؤلمنا وإن مسَّ من يضمون أنفسهم موضع الخصومة الوضيعة نحونا ، مستغلين مآلمهم ونفوذهم للتغرير حتى بالشباب الذى نخدمه ليسىء الينا بأحط الوسائل ! نعم ،

إن مثل هذه الحالة تؤلمنا أشدّ الألم لان سمعة أدبنا وأدبائنا هى عندنا فى المحل الأرفع من الاعتبار إذ أنها رمزٌ لكرامتنا القومية ولا يعاننا بالشرف والنبل ، خصوصاً فى الوقت الذى تتهم فيه السياسة أبناءَ مصر بالغدر والجحود وتنفى مثل هذا الخُلق عن اخواننا السودانيين .

فمن الهواجس النقدية التى وجهت الينا أننا ننتقص أبناء الوطن بتقريعنا ، فى حين أننا لا نرمى الى أكثر من استفزاز الهمم والتنبُّه الى عيوبنا كما كان يفعل كبار خطباء العرب وكما يفعل كلُّ مخلص لوطنه يؤمن بقول ابن حزم « صديقك مَن صدقَك لامن صدّقك » . وبهذه الروح كان ينظم المرحوم حافظ ابراهيم بك معظم شعره الوطنى المأثور وقد اتخذ من قلمه المؤدّب كرباجاً قاسياً . والملحوظ أن أغلب مَن ينتقدون هذا النقد هم من المترفين البعيدين عن معارك الحياة ، المكفول لهم الرزق والراحة ، العازفين عن تحمّل الأعباء الاجتماعية ، الناصبين أنفسهم للنقد والمؤاخذة دون أىّ جهد انشائى يبذلونه ، فليس لهم علم حقيقى بعيوب بلادهم ومفاسدها ، أو هم يتعامون عن كلّ ذلك ليظهروا بمظاهر البرّ بها على حساب المصلحين !

و من هذه الهواجس أن يُعابَ علينا الحنينُ الى المستقبل أسوة بالحنين الى الماضى ، والأولُ مما يوحيه العقلُ الواعى المفكّر والثانى مما يوحيه العقل الباطن المتصل بطفولة الانسانية . فهل فُرِضَ على الشعر أن يحنّ الى الماضى وحده وينسى المستقبل العظيم بما فى ثناياه من معجزات مقدَّرة يكاد لا يلحق بها الخيالُ الجامح ؟ وكان صديقنا الشاعر الهمشرى قد أشار منذ زمن بعيد الى حنيننا القوىّ للمجهول واستكناه أسراره ، ونذكر أن أحد الأدباء وقتها عدَّ ذلك ظاهرة جنونية ! ولماذا يكون هذا الحنين ظاهرة جنونية وهو ابن التطلُّع الى سرّ الحياة ومعانى الاضمار فى الكائنات والبواعث الخفيَّة لكلّ ظاهرة وكلّ موجود ؟ وأىّ جنون فى أمثال قصائدنا « أقصى الظنون » و « حيائى » و « سفينة الشمس » و « الذروة » و « فى الطريق الحزين » و « الاضمار » و « الخلود » مع أنّ هذه القصائد وأمثالها بناتُ النفس الباحثة الظامئة التى تتطلع الى الكمال الفنى تطلُّعها الى أسرار الوجود فى عوالمه وفى دقائقه على السواء ؟ !

ومن هذه الهواجس أن تُعابَ علينا ملكةُ التصوير الشعرى واسرافنا المزعوم فى تطبيقها للمحسوس والمتخيَّل ، كأنما الشعر وقفٌ على التصوير العاطفى وحده

وليس له أن يصوّر المظاهر الفنية فى الكائنات والأشياء ولا أن يجسّم الأخيلة الفنية التى هى بمثابة حقائق للشاعر وإن كانت عدماً أو وهماً لغيره ! وما يُنعَتُ بالاسراف فى هذا التصوير ليس فى الواقع الا الدقة المنوّعة فى إبراز شتى الحالات من المخيلة والوجدان فى تصاوير مختلفة نابضة بالحياة سواء أكانت تصاوير ذاتية أم تصاوير قصصيّة .

ومن هذه الهواجس أن يسخر فريقٌ من الروح الافلاطونية فى شعرنا الغزلى حينما يسخر فريقٌ آخر من الروح الابيقورية (كما ينعتها) ،ولو تدبر كلا الفريقين ووقف على معانى الفلسفة الجنسية (أنظر مثلا «موسوعة المعارف الجنسية» Encyclopaedia of Sexual Knowledga لتذوّق كلا اللونين من الشعر ولعلم معناها الصادق ، ولابتعد عن الهراء الذى يتمشدق به عن فلسفة الغزل حتى كاد السذج يوهمون بأن الحبّ اللائق بالرجال هو نوعٌ من الاغتصاب ، وان الغزل الشعرى اللائق بالشعراء الكبار هو عبارة عن تمرين انشائى مدرسى ! أما أن يكون الحبُّ تجاوباً ، وأما أن يكون شعر الحب صادقاً معبراً عن ستى الحالات النفسية وليس عن بعضها فقط ، وأمّا أن يكون الغزل بعيداً عن الجهامة أو بعيداً عن التصنع ، فهذا مما يعدّ خارجاً عن صفات الرجولة !

ومن هذه الهواجس انتقاص شعر الفكر والعلم خصوصاً اذا امتزج بالتصوّف والفلسفة ، فهل من الكمال الفنى التعلق بشعر الوهم وحده ؟ أليست العبرة بالتناول الشعرى للموضوعات لا بالموضوعات ذاتها؟ أليست قصيدة يوب عن الانسان من أجلّ الموضوعات ومع ذلك ليست من أجلّ الشعر ؟ ألم يحن الأوان مثلا للتسامى بالتصوُّف فى الشعر عن الخرافات الفرضية الكثيرة ؟ أليست مظاهر الكون وأسراره ودقائقه العلمية ملاحم شعرية تنظر الينا وتوحى بنظمها فى بياننا ؟ ألم يقرأ هؤلاء الناقدون الجاهلون ديوان (حملة المشعل The Torch Bearers) للشاعر الكبير ألفرد نويز رئيس جمعية الشعر الانجليزية ؟ وأى داع الى الانتقاص وأى نافٍ للشاعرية فى أمثال قصائدنا « شعر النجوم» و«البداية والنهاية» و« ما وراء المجرة» و « الأشعة الكونية » و « رُسُل السماء » ونحوها مما تمازج فيها العلم والفكر والروح الشعرية تمازجاً موسيقياً ، اللهم إلا اذا كان الجهل والأمية وتكرار خواطر السلف وأساليبهم هى البضاعة الفنية الوحيدة التى يجب أن نحفل بها ؟ !

ومن هذه الهواجس مؤاخذة الشاعر على صراحته وصدقه فانْ بكى قيل هذا ضعفَ ، وإن تجلَّد قيل هذه كبرياء مصطنعة ! وفى الحقّ لا يُحمد الشاعر إلاّ على صدقه كيفما كان تَصرُّفُه ، فنحن نحبّ مطران فى قصيدته « الأسد الباكى » كما نحبّ ناجى فى قصيدته « الشكّ » لأننا نشعر بالاخلاص فى شعر كلٍّ منهما وإنْ اختلفا جدَّ الاختلاف . الصّدقُ أولاً وأخيراً هو ما نطالب به الشاعرَ الى جانب أدائه الفنى ، وإلا كان محضَ صانع . ولسنا نحن من يهوى تهالكَ بوديلير على الشهوة ، ولكننا مع ذلك نهوى شعره لأننا نحسّ فيه باخلاصه العميق ، وهكذا لا نستطيع تجريح شعره من الوجهة الفنية المحضة . وبديهى أنّ أحوال النفس الانسانية كثيرةُ التقلب ، فالشاعرُ الذى يَكبت احساسه ويكتم تعابيره عن كثير منها لأجل أن يتظاهر فى المجتمع بمظهر خاص لا يستحقّ احترامَنا الفنى . . . ليست الآهاتُ والدموعُ ولا التجلُّدُ والصلابةُ بما يُعاب لدى الشاعر ما دامَ وراء ذلك طبعٌ شعرىٌّ صادقٌ ، وانما الذى يُعاب هو التصنّع وحده لهذه الانفعالات والتظاهر بخلاف ما يضمر .

ومن هذه الهواجس الطعنُ فى الرمزية مع أنها من صُوَر التعبير المثقَّف ومن الأساليب الشعرية العميقة المستوعبة . مثال ذلك هذان البيتان فى « الطاووس الأبيض » وقد قيلتا فى حسناء لبست البياضَ وجافت الأصباغَ والدّرور :

أنتَ فى الحُسْنِ مُضْمَرُ اللَّونِ والحلْـ ـيةِ كالنُّورِ يُضمِرُ الألوانا
إن يَعِبْكَ الذين لم يَشعروا بَعْـ ـدُ فيكفى اجتذابُكَ الفَنّانا

والواجب على هؤلاء المنتقصين أن يقرؤوا كتاب (الرمزية — معناها وأثرها : Symbolism, Its Meaning and Effect)للدكتور هوايتهيد أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد ليروا بأعينهم أىّ حكم قاس يحكمه ذلك الأستاذ العبقرى على الكافرين بالرمزية !

ويطول بنا التعليقُ لو تتبّعنا الهواجسَ الأخرى (وما أكثرها !) فحسبنا ما ذكرناه على سبيل المثال ، وهو شاهدٌ كاف على أن النقد الأدبى فى مصر لا يزال فى بداية السلم تعبث به الأهواء ذات اليمين وذات اليسار فيعوقه ذلك عن الصعود المرموق ، وأن معظم جرائدنا ومجلاتنا تترك صفحاتها الأدبية تحت رحمة الأدعياء وتلاميذ المدارس حينما يُشغل أصحابُها بمسائل السياسة وبمواردها المالية !